ثقافة الحوار مع الآخر في الحضارة الإسلامية

الدكتور نجيب بن خيرة

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

مقدمة: إن موضوع ثقافة الحوار هام جدا، وبخاصة في هذه المرحلة التاريخية التي تبذل فيها محاولات كثيرة للتقارب بين الشعوب ومقوماتها، بجانب محاولات أخرى للتباعد بين تلك الأفراد والشعوب، وعلى هذا الأساس فضلت أن أتناول الموضوع وفقا للنقاط الآتية:

1- الحوار ضرورة شرعية وقيمة حضارية

2- مرتكزات التصور الإسلامي للآخر

3- صورة الآخر في التجربة التاريخية الإسلامية

4- نحن والغرب..إعادة نظر

1- الحوار ضرورة شرعية وقيمة حضارية: الحوار حديث بين طرفين للعثور على أرضية مشتركة يتوصل من خلالها إلى أهداف محددة قد تكون هذه الأرضية قيما مشتركة كإقامة العدل ونبذ الحروب وحقن الدماء، وقد تكون تحقيق مصالح للطرفين من تبادل المنافع وقد تكون من أجل إقناع أحد الطرفين بوجهة النظر الأخرى عن طريق وسائل الإقناع.

والحوار قيمة إنسانية إذ "أن قيمة البشر كما يقول أفلاطون تكمن في قابليتهم للإقناع وذلك بإظهارهم على مختلف الوسائل البديلة للحرب". والحوار في الشرع أصله في الكتاب والسنة: أما في الكتاب فقوله تعالى: "وجادلهم بالتي هي أحسن"، وقوله تعالى: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن". وقوله: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن". وهذه الآية لم تفتح باب الحوار على مصراعيه بل أوجبت ولوجه ولهذا سنتوقف معها وقفة: إذ ليس الحوار إمكانية متاحة للأمة الإسلامية فقط، بل إنه من واجبات هذه الأمة ومسئولية ملقاة على عاتقها لأن رسالتها في هذا العالم تقوم على الانفتاح على الغير والتفاعل معه ولهذا جاء الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يبدأ الحوار المعبر عنه بالمجادلة.

وأما في السنة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد حاور قريشا في صلح الحديبية حيث وصل معهم إلى اتفاق معروفة فصوله، وبذلك ندرك أن موضوع الحوار قد يكون دينيا وقد يكون دنيويا في خدمة الدين والأمة.

وهناك قاعدتان أصوليتان ينبغي التنبه إليهما فنحن في مباحث الشريعة نتعامل مع دلالات الألفاظ بحرص شديد والقاعدتان هما: أن الأمر المطلق يدل على الوجوب، ثانيا: أن الأمر الصادر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشمل الأمة فهو موجّه إليه شخصيا ومن خلاله إلى الأمة بكاملها. ثالثا: أن الأمر عند جمهور علماء أصول الفقه – وهو علم معايير التعامل مع النصوص– يدل على الفور. النتيجة: أن الحوار واجب على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى أمته وأنه يجب البدء به فورا عندما تسنح سانحة، وقد نبه العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره القيم على ما تضمنته الآية الكريمة من وسائل الدعوة الثلاث "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن"، فقال ابن عاشور: "إن كل من يقوم مقاما من مقامات الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب أن يكون سالكا للطرائق الثلاث: الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وإلا كان منصرفا عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمة ويخشى أن يعرض مصالح الأمة للتلف"[1]. إلى هذا الحد كان حرص علماء الأمة على قيمة الحوار كبيرا، لأن الحوار وسيلة لإبلاغ الدعوة من جهة ومن جهة أخرى وسيلة للمحافظة على مصالح الأمة[2].

2 – مرتكزات التصور الإسلامي للآخر: إن التعدد في المخلوقات وتنوعها سنة الله في الكون وناموسه الثابت، فلكل شيء في هذا الخلق طبيعته وخصائصه وصفاته التي تقارب غيره أحيانا، وتتغافر عنها في أحايين أخرى، **وهكذا فطبيعة الوجود في الكون أساسها التنوع والتعدد.**

1- التحرير والتنوير، ج. 14، ص. 334.

2- عبد الله بن محفوظ بن بية، الإسلام والحضارات الأخرى، مؤتمر الإسلام وحوار الحضارات، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2004م، ص. 179.

والإنسانية خلقها الله وفق هذه السنة الكونية، فاختلف البشر إلى أجناس مختلفة وطبائع شتى، وكل من تجاهل وتجاوز أو رفض هذه السنة الماضية لله في خلقه فقد ناقض الفطرة وأنكر المحسوس والملموس. وقد أكدت الآيات في القرآن الكريم أن اختلاف البشر في شرائعهم هو أيضا واقع بمشيئة الله ومرتبط بحكمته. يقول الله تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا" (المائدة 48).

قال ابن كثير: "هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد"[1]. وفي معنى الآية يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "(لو شاء ربك) أيها الرسول الحريص على إيمان قومه الآسف على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته واتباع هدايته (لجعل الناس أمة واحدة) على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة، لا رأي لهم فيه ولا اختيار، وإذا لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى البشر وبنوع الإنسان، بل كانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو كالنمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله عز وجل، فلا يقع بينهم اختلاف، ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته كاسبين للعلم، لا ملهمين، وعاملين بالاختيار[2].

فالإسلام يعترف بوجود الاختلاف وعدم إمكانية جمع الناس على دين واحد، ويطلب من الدعاة ورثة الأنبياء القيام بواجب البلاغ في الدنيا واستفراغ الوسع في الإرشاد والنصح للعالمين ثم الله يتولى – بحكمه وعدله– يوم القيامة حساب المعاندين، وجزاء المؤمنين[3].

بل وضع الإسلام للحوار قواعده وآدابه، ولعل أبرز هذه القواعد والآداب ما ورد في سورة "سبأ" كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحاور مجموعة من غير المؤمنين شارحا ومبينا ومبلغا، ولكنهم كانوا يصرون على أن الحق إلى جانبهم فحسم الحوار معهم على قاعدة النص: "وإنا

1- تفسير القرآن العظيم، ج. 2، ص. 67.

2- تفسير المنار، ج. 12، ص. 193.

3- السقار، الحوار، www.saaid.net

أوإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (سبأ 24)، لقد وضع الرسول نفسه في مستوى من يحاور تاركا الحكم لله، وهو أسمى تعبير عن احترام حرية الآخر في الاختيار. وعن احترام اختياره حتى ولو كان على خطأ، وذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال القرآن الكريم في الآية التالية مباشرة "قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون" واعتبر اختياره للحق بأنه إجرام في نظرهم ووصف اختيارهم للباطل وهم على باطل بأنه مجرد عمل، ثم ترك الحكم لله. "قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم".

إن احترام حرية الاختيار هنا ليس احتراما لخطأ، فتسفيه وجهة نظر الآخر ومحاولة إسقاطها ليس الهدف الذي يرجوه الحوار الجاد الذي يكوِّن أحد أهم عناصر الاحتكاك الفكري والتكامل الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس، ومن دون ذلك يركد الذهن، ويفقد التعطش إلى المعرفة التي هي عود الثقاب الذي يلهبه، وتتحول مساحات الفكر إلى بحيرات آسنة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين" (البقرة 251).

3 – صورة الآخر في التجربة التاريخية الإسلامية: منذ سطع نور الإسلام على حتى أدرك المسلمون طبيعة دينهم وعالمية رسالته فقاموا يدعون الناس إلى هديه، فبدأ الحوار بين المسلمين ومشركي قريش، وسجل القرآن في آياته الكثير من هذه الحوارات، وتولى فيها الرد على المشركين. وكان من أهم مناسبات الحوار هجرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة وحوارهم مع النجاشي حول قول المسلمين في المسيح وأمه عليهما السلام.

وحين انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ الحوار مع أهل الكتاب –من قطان المدينة المنورة– وقد نقل القرآن الكريم الكثير من الحوارات التي طلب من النبي أن يجريها مع أهل الكتاب، والكثير منها كان يبدأ بقوله تعالى: "يا أهل الكتاب" في (النساء 171، وفي المائدة 15، 19، 59، 68، 77).

وكان أهم اتصال بالنصرانية قدوم وفد نصارى نجران إلى المدينة وبقاؤهم فيها أياما يناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أذن لهم رسول الله بالصلاة في مسجده، وقال لأصحابه

"دعوهم"[1]. ونزل بسبب هذه الزيارة بضع وثمانون آية من صدر آل عمران. و لم تنقل إلينا كتب السنة إلا الزر اليسير عما دار بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومما نقل ما ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره أنه جاء راهبا نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فعرضا عليهما الإسلام فقال أحدهما: إنا قد أسلمنا قبل، فقال: كذبتما، إنه يمنعكما عن الإسلام ثلاثة: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم لله ولد. قال: من أبو عيسى؟ وكان صلى الله عليه وسلم لا يعجل حتى يأتي أمر ربه فأنزل الله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون؟ (آل عمران 59)[2].

وذكر الطبري بإسناده أيضا أن نصارى نجران قالوا: "ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه ؟، قال: بلى. قالوا: فحسبنا. فأنزل الله عز وجل: "فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" (آل عمران 7)[3].

لكن الذي يثير الانتباه في زيارة وفد نجران ما نقله الطبري من اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم بهم في حضور وفد من يهود المدينة. فقد روى بإسناده إلى ابن عباس أنه "اجتمعت نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله فتنازعوا عنده. فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا: فأنزل الله: ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا" (آل عمران 67)[4].

وحين رجع وفد نجران إلى بلاده لم ينقطع حوارهم مع المسلمين. ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معهم المغيرة بن شعبة، فكانوا يحاورونه ويطرحون عليه الأسئلة عن القرآن،

1- ذكره ابن هشام في سيرته، 1، ص. 511، وابن القيم في زاد المعاد، ج. 3، ص. 630-631، والقرطبي في الجامع ج. 4، ص. 5.

2- رواه ابن جرير في تفسيره، 3، 163، وأبو نعيم في دلائل النبوة، 2، 258.

3- الطبري، تفسير، 3، 177.

4- الطبري، تفسير، 3، 305.

ومن ذلك أنه أشكل عليهم مؤاخاة القرآن بين مريم وهارون، وبينهما زمن مديد، فقالوا: للمغيرة: ألستم تقرأون؟ يا أخت هارون (مريم 28)، وقد علمتم ما بين موسى وعيسى..[1]

وأوردت كتب السنة الصحيحة أن النبي عليه الصلاة والسلام راسل الملوك والأمراء خارج شبه الجزيرة العربية ممن كانوا على دين النصارى من أمثال النجاشي وهرقل والمقوقس يدعوهم إلى الإسلام، ولو أن المصادر لم تذكر لنا ما الذي جرى بين سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم والذين أرسلوا إليهم، إلا أنه من المؤكد تحاورهم، إذ هو ما تقتضيه مهمة السفراء[2].

ومما نقل في ذلك حوار حاطب بن أبي بلتعة مع المقوقس؟ فقد سأله المقوقس عن حرب النبي صلى الله عليه وسلم مع أعدائه، فأجابه به حاطب بأنه يغلب ويُغلب، فقال المقوقس: أنبي الله يُغلب ؟ فأجاب حاطب. أولد الله يصلب؟[3].

وقد تم الحوار بين البطريق اليعقوبي المصري بنيامين وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة 643م، وألف بطريق من بطاريق النسطور رسالة حول حوار دار بين المسلم والمسيحي، وهناك رسالة أخرى تناولت الحوار الذي دار بين الخليفة العباسي المهدي وبين البطريق النسطوري Timotheus عام 781م، وهذا البطريق اعترف بقبول منهج الرسل انطلاقا من موقف محمد صلى الله عليه وسلم ضد الوثنية رغم أنه لا يقبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم[4].

ويصور لنا الخطيب البغدادي أحد مراسم استقبال سفراء القسطنطينية في حاضرة الخلافة العباسية بغداد زمن الخليفة المقتدر بالله فيقول: "ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله ففرشت الدار بالفرش الجميلة، وزينت بالآلات الجليلة، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم على أبوابها ودهاليزها ومحرابها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها، ووقف

1- رواه مسلم، ج. 12135.

2- منقذ بن محمود السقار، الحوار مع أتباع الأديان، مشروعيته وآدابه.

3- عيون المناظرات، ص. 185.

4- عمر فاروق حرمان، نظرة النصارى إلى الإسلام، استانبول 1993م، ص. 98.

الجند صفين بالثياب الحسنة، ثم استدعي بعد أن طيف به في الدار إلى حضرة المقتدر بالله وقد جلس وأولاده من جانبيه فشاهد من الأمر ما هاله"[1].

وقد نقلت إلينا المصادر أيضا بعض حوارات الخلفاء مع غيرهم، ومنه حوار الخليفة هارون الرشيد مع طبيبه النصراني، واستعانته بعالم خراسان محمد بن عمر بن واقد[2].

كما جمع الخليفة المأمون بين كلثوم بن عمرو العتابي وأبي فروة النصراني وتناظرا بين يديه في قول النصارى بألوهية المسيح[3].

كما وفد القاضي أبو بكر محمد الباقلاني على ملك الروم في القسطنطينية بأمر من المعتضد العباسي، والحوار الذي جرى بينه وبين ملك الروم وراهبهم مشهور في كتب التاريخ[4].

وهذه المناظرة جرت في مجلس الإمبراطور (ياسيليوس الثاني) الذي حكم من سنة 365هـ إلى سنة 416هـ، ومهما يكن أمر سفارة الباقلاني بين عضد الدولة وبين ملك الروم فنحن لا نعرف ظروفها التاريخية، وربما كان ملك الروم قد أراد من يبيّن له أمر الإسلام، أو من يجيب عن أسئلة النصارى بشأن ما يعتقده المسلمون، ويتبين من تفصيل المناقشات أن مهمة الباقلاني كانت مدنية علمية هي أشبه ببعثة تبادل الآراء ومعرفة وجهات النظر الدينية[5].

ونقل صاحب عيون المناظرات قصة فيلسوف نصراني قدم بغداد، وأسلم بعد حواره مع نخبة من علماء المسلمين جمعهم الخليفة في قصره: منهم الصالحي والجبائي والكعبي والأشعري[6].

1- جوستاف فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1997م، ص. 14- 15.

2- عيون المناظرات، ص. 207-208.

3- المصدر نفسه، ص. 213.

4- ينظر: سير أعلام النبلاء، ج. 17، 191، عيون المناظرات، ص. 248-249.

5- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ، دار المعارف، مصر 1981م، ص. 24.

6- عيون المناظرات، ص. 217.

وبعيدا عن قصور الأمراء تحاور العلماء المسلمون مع غيرهم، ولعلّ من أوائل ما نقل في هذا الصدد حوار أبي حنيفة النعمان بن ثابت مع طائفة من الملاحدة حول سببية العالم[1].

- ومع العصر العباسي أصبحت بغداد مقرا للحاخاميات اليهودية الكبرى بعد أن اتخذها العباسي وحاضرة لخلافتهم فقد كان الخليفة العباسي يقوم باختيار وتعيين رأس الجالوت وباعتباره من أكابر موظفي الدولة لأنه مسؤول عن طائفة كبيرة، فكان يتم الاحتفاظ بخطاب تعيينه في ديوان الإنشاء، فضلا عن ذلك استمر البستاني في الاحتفاظ بنفس اللقب إلى جانب الاحتفاظ بلقب 5 ناسي- أو أمير، على أن يكون منصب رأس الجالوت وراثيا فيما بينهم، ومن هذا نتبين مدى ارتباط حركة الحاخامية اليهودية بمركز الخلافة سواء في دمشق أو بغداد مما يؤكد أن هذه الطائفة قد نالت اهتمام الخلافة وأن العلاقة بينهما قامت على أساس الحوار والاحترام.

كما حظي رأس الجالوت عنان بن داود بإكرام الخليفة أبي جعفر المنصور كما انعكست هذه الروح التي عومل بها على عامة المسلمين الذين كانوا يحترمونه حتى أنرأس الجالوت دانيال بن حسداي في خلافة المتقي 329-333هـ كان ينعت بلقب سيدنا ابن داود، وكان الخليفة هو الذي مكّن له الأمر فيهم وبوّأه الرياسة حتى أصبح من الفرائض على المسلمين واليهود على السواء الوقوف إجلالا له إذا كانوا بحضرته، وكان دانيال يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس، وكان أثناء امتثاله بين يدي الخليفة يقف أمراء المسلمين وكبارهم بين يديه[2].

وظل هذا الاحترام لشخص رئيس اليهود طوال العصر العباسي، حتى أن الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي قد أفاض في تلك الوضعية الممتازة التي ارتقى إليها خلال خلافة المستنجد العباسي وعندما زار بغداد حوالي عام 564هـ-1168م كان يستقبل في بلاط الخليفة استقبالا حارا، ويعدّ له مكان بجوار الخليفة يتبادلان الحوار والحديث الذي ينم عن وُدّ واحترام شديدين،

1- درء تعارض العقل والنقل، ج. 3، ص. 127.

2- المقريزي، الخطط، ج. 2، ص. 475، نريمان عبد الكريم أحمد، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1996م، ص. 87.

كما ارتبطت هذه المكانة الممتازة التي حظي بها رئيس الجالوت لدى خلفاء المسلمين فيما خوطب به من ألفاظ التعظيم عند الكتابة إليه، وظهرت هذه الألقاب في بعض النصوص المتأخرة[1] منها: الرئيس، الأوحد، الأعز، الأخص، شرف الطائفة اليهودية[2].

وقد تكلفت الدولة المسلمة بحركة علمية كبرى بين أتباع الطائفة اليهودية، وأتاحت فرصا لتصحيح التلمود وتعاليمه وتطبيقها بشكل صحيح[3].

وكتب العلماء العشرات من الكتب والردود على مختلف محاوريهم، فازدهر حوار الكتب، ومنه كتاب "الجواب الصحيح" لابن تيمية، وهو يرد فيه على كتاب ورد من قبرص بعنوان "الكتاب المنطقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم" لراهب صيدا الأسقف بولس الراهب.

كما كتب أبو الوليد الباجي رسالة رد فيها على رسالة وجهها راهب فرنسا إلى المقتدر بالله أمير سرقسطة يدعوه فيها للدخول في النصرانية.

وكتب أبو عبيدة الخزرجي القرطبي كتابه المشهور باسم "مقامع هامات الصلبان، ومراتع روضات الإيمان" ردّا على أسئلة كان يثيرها قسيس من القوط على نفر من المسلمين بطليطلة[4].

وقد أسهبت أسفار التاريخ في ذكر تفاصيل هذه العلاقات، يصف أحد المستشرقين الإيطاليين ذلك فيقول: "كانت شبه جزيرة إيبيريا هي المكان الذي جرى فيه الاتصال المثمر والمشرق بين الإسلام والحضارة الأوربية الناشئة، وهو الاتصال الذي تطور على مدى سبعة قرون"[5].

1- القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 2، ص. 174.

2- نريمان، معاملة غير المسلمين...، ص. 87 -88.

3 - Goitein.s, Jews and arabs, their contact through the ages, new york, 1955.

4 - السقار، الحوار، www.saaid.net

5- فراتشيسكو غابرييلي، الإسلام في عالم البحر المتوسط، في كتاب، تراث الإسلام، ص. 95 وما بعدها.

وقد بلغت الحرية في الأندلس مبلغا جعل اليهود الذيت ذاقوا مرارة التعذيب والاضطهاد في أوروبا أن يأتوا أفواجا أفواجا إلى ديار الخليفة ليعيشوا أحرارا مطمئنين على عقائدهم ومعابدهم ومؤسساتهم، كما أن النصارى كانوا يعقدون مؤتمرات واجتماعات تحت رعاية الدولة المسلمة، كمؤتمر إشبيلية وطليطلة وقرطبة سنة 852م وذلك لحمل الأساقفة على اتخاذ قرار لكف الاضطرابات والقلاقل التي أثارها متعصبو النصارى على بعضهم وفي اجتماع طليطلة استقر رأي الأحبار على إذاعة هذه النصيحة المستمدة من التسامح الإسلامي وهي "لا يكره أحد على دينه"[1].

نحن والغرب. ....إعادة نظر

- لا يمكن أن تكون مطالبة المسلمين بإجراء نقد ذاتي لسلوكياتهم والأهم من ذلك نمط تفكيرهم أحادية الجانب، فالغربيون مطالبون أيضا بعملية نقد ذاتي صريح وجريء، لأن الحضارة الغربية -وإن كانت خلفيتها دينية مسيحية أساسا- فإنها نتاج اجتهادات بشرية فالنصرانية ليس فيها -على حدّ علمنا- دعوة لاستعمار الشعوب ونهب ثرواتها وعرقلة مسار تقرير مصيرها بعد استقلالها، والدين المسيحي يقوم على التسامح ومحبّة الآخر، وليس فيه مكان لدعوة عنصرية أو عرقية أو شوفينية، إلا أن المتأمل في التاريخ الحديث والمعاصر يخلص إلى أن الفاشية والنازية والعنصرية نشأت في أحضان المجتمعات الغربية، وأن جيوش الاستعمار خرجت من الأراضي الأوروبية[2].

- بما أن فهم الدين لا يمثل إلا وجهة نظر المجتهدين في تلمس حقائقه الموضوعية ما يجعل من الطبيعي أن نجد الاختلافات الاجتهادية في فهم الدين، والتي تمخضت عن مذاهب لم يسلم منها أي دين. لذلك فإن فكرة أن المسلمين أعرف بإسلامهم من غيرهم دائما وهكذا سائر الأديان هي فكرة غير علمية وغير دقيقة لأن نقاش الفكرة الدينية في بعدها الثقافي كنقاش أي فكرة

1- أحمد رضا، وثائق عن الحروب الصليبية، ترجمة محمد بورقيبة ومحمد الصادق الزمرلي، ط. 3، دار بوسلامة، تونس 1977م، ص. 192، 193.

2- محمد الغمقي، الإسلام والغرب، صدام أم حوار، Islameonline.net

يخضع للموازين العلمية في الاستدلال على صحتها أو خطئها، والتي ترتكز إلى منهجية إنسانية عامة، ومفردات ثقافية معرفية تمثل أدوات مقاربة الموضوع.

ولعل ما أوجب ذلك النوع من الاحتكار المعرفي للدين، والذي من شأنه أن يفوّت على الحقيقة فرص التلاقح الفكري عبر الحوار الذي يفتح فرص الإطلالة على أكثر من وجهة نظر في فهم الحقيقة. ولعلنا نلمح عظمة المنهج الحواري ما ذكره القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم: "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" حيث لم يطرح المحاور صوابية فكره، وخطأ الفكر الآخر، بل على أساس فكرة مطروحة يتساوى فيها احتمال الخطإ والصواب[1].

– هناك آلية أخرى تعزز الحوار مع الآخر وتجعله ناضجا، وهو أنه لا يوجد محرم أو مقدس في الحوار –فلا ينطلق من مسبقات قداسوية، فإن التقديس لا بد أن يدل عليه العقل بالدليل والبرهان. ولمسنا هذا في القرآن الكريم الذي ذكر كل المفردات التي اتهم بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم في شخصه ورسالته، ثم عالجها بجدية وموضوعية، هل هو مجنون أم عاقل؟ ساحر أم نبي؟ كاذب أم صادق؟ قرآنه من صنع البشر أم إلهي؟[2].

– إن الحوار بين الأديان هو التخطيط لحماية القيم من أن يتم تشويهها في حركة البناء الحضاري، لأن الحضارة الحديثة استدبرت قيم الدين، واستبعدت وحي السماء من الحياة، وحماية القيم يتم بإحيائها فهي قواسم مشتركة بيننا وبين أهل الكتاب، ولهذا جاء في تتمة الآية في مجادلة أهل الكتاب "وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون" (العنكبوت 46). ففي مجال التقريب والحوار بالتي هي أحسن: ينبغي ذكر نقاط الاتفاق لا نقاط التمايز والاختلاف، وهناك من المسلمين المتشددين من يزعم أنه لا توجد بيننا وبين اليهود والنصارى أية جوامع مشتركة، مادمنا نحكم عليهم بالكفر، وأنهم حرفوا وبدلوا كلام الله.

1- محمد حسين فضل الله، في أسس الحوار بين الأديان، www.alwihdah.com

2- المرجع نفسه.

وهذا فهم خاطئ للموقف الإسلامي من القوم، فلماذا أباح الله تعالى مؤاكلتهم ومصاهرتهم؟ وكيف أجاز للمسلم أن تكون زوجته وربة بيته وأم أولاده كتابيه؟ ومقتضى هذا أن يكون أجداد أولاده وجداتهم وأخوالهم وخالاتهم وأولادهم من أهل الكتاب؟ وهؤلاء جميعا لهم حقوق ذوي الرحم وأولي القربى.

ولماذا حزن المسلمون حين انتصر الفرس، وهم مجوس يعبدون النار - على الروم وهم نصارى أهل كتاب؟ حتى أنزل الله قرآنا يبشر المسلمين بأن الروم سينتصرون في المستقبل القريب "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله" (الروم 4، 5) وهذا يدل على أن أهل الكتاب وإن كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم أقرب المسلمين من غيرهم من الجاحدين أو الوثنيين[1].

- التأكيد على قيمة الإنسان على المحبة ذلك الذي تتمثل فيه الإيجابية الروحية والعملية في العلاقة بالآخر لأن المحبة تعني النظر إليه من خلال إنسانيته، وقد جاء في التعليم المسيحي أن الله محبة، حيث ينفتح المخلوق على خالقه بالحب الذي هو سرُّ الوجود والعناية واللطف والرحمة.

وفي الإسلام جاء أن الدين هو الحب "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وإذا كانت المحبة هي الطابع الذي يمثله الإنسان فإن ذلك يجعله منفتحا على الاعتراف بوجوده كما هو واحترام فكره دون خلفية إقصائية أو إلغائية[2].

- القرآن الكريم يؤكد في مواضع كثيرة على تقدير الجانب الروحي والقيمي عند الآخر في قوله تعالى: "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون" مما يوحي بأن الاختلاف في الانتماء الديني لا يمنع من تقدير الجانب القيمي في العلاقات الإنسانية.

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن اليهود بشكل سلبي فإن ذلك لا يتصل بالانتماء الديني لليهودية لأن اليهودية دين الله الذي أنزله على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بل من خلال السلوك السلبي المتمثل في أخلاقياتهم وعلاقاتهم بالآخرين. ومع ذلك فالقرآن يؤكد على

1- يوسف القرضاوي، فقه الأقليات المسلمة، ط. 2، دار الشروق، القاهرة 2005، ص. 68-69.

2- محمد حسين فضل الله، في أسس الحوار...، مرجع سابق.

المسلمين أن يأخذوا بالمسالمة العامة مع كل الفئات المسالمة "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين" أما الذين يمارسون العدوان بالقتل والتشريد ومساعدة الأعداء فلهم وضع آخر باعتبار أن الأمر عندئذ يتمحور حول الدفاع عن النفس "إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون" (الممتحنة 9).

فمسألة الجهاد في الإسلام ليست عدوانية قائمة على أساس الاختلاف في الدين أو الرأي بل هي مسألة وقائية في حالة، ودفاعية في حالة أخرى، وما يحدث في التاريخ الإسلامي أحيانا من تجاوز لا يمثل العصمة المطلقة، كما شأن تاريخ سائر الأديان[1].

- إن الحديث في وسائل الإعلام الغربي عن التيار الإسلامي المتطرف أمر بالغ الخطورة لأنه يوهم الجمهور بأن المسلمين كافة ينتمون إلى هذا التيار، الأمر الذي يتطلب إعلاما إسلاميا موازيا يصحح المفاهيم، ويرد الأباطيل، ويزيل الأوهام، ويرسم الصورة الحقيقية المشرقة لدين قوامه التسامح والرحمة والمغفرة، الأمر الذي يبدد المخاوف ويرأب الصدع مع الآخر المتخوف من فتح الحوار على أرضية مشتركة من القيم والمبادئ والأفكار.

- هناك قواعد سلوكية ترشدنا إذا أردنا أن ننخرط في عملية الحوار مع أتباع الديانات: التأكيد على أهمية التوافق بين المعتقدات الدينية والجوانب العملية، البدء بالقواسم المشتركة، الأخذ بالحسبان تأثير حركة التنوير الأوروبية على الأديان، الأخذ بمبدأ عدم الإكراه، إقرار حق الفرد في إعلان دينه، إعادة النظر في محتوى مناهج التربية والتعليم، ضمان الانسياب الحر للمعلومات، النظر في التراث والتاريخ والاجتهادات الخاصة بديانة الفرد وديانة الآخر، وضع أطر مناسبة لتفهم الاختلافات في الرأي، قبول النهوض بمسؤولية الأقوال والأفعال على كل الصُعد، الإقرار بالأبعاد السياسية والاقتصادية للحوار بين الأديان[2].

1- المرجع نفسه.

2- الحسن بن طلال، كلام في الحوار، روحه أدبه فنه، www.alwihdah.com

– إن المشكلة في كثير مما نعيشه هو أننا نتحدث مع الآخر ما نحن لا من خلال ما هو، فلا بد أن نعترف بالآخر، لأن عدم الاعتراف به مسألة غير إنسانية بالدرجة الأولى، والشجاعة في الاعتراف به يجعلنا نكتشف إيجابياته وسلبياته، وهو ما يحقق التقارب الفكري والاحترام الإنساني. ونحن لا نمانع في أن هناك فكرا مختلفا لكن لا على أساس أن كل هذا الفكر يختلف مع كل ذلك الفكر.

إن الغرب ليس كله الرئيس الأمريكي وإدارته والمحافظين الجُدد وما إلى ذلك فإن الغرب مراكز ومؤسسات تلتقي بالخطوط التي نؤمن بها، وهذا المناخ ينبغي أن نفهمه وخصوصا أن مصالحنا ارتبطت بمصالحه، والكثير من سياساتنا ارتبطت بسياسته، ونحن لا نستطيع أن نعزل أنفسنا ونقول "الموت لأمريكا" لأن أمريكا لا توت بهذا الشعار، وهذا الشعار قد يعمق الهوة بيننا وبين الشعب الأمريكي، وهذا ما تريده إدارته. وجاليتنا المسلمة في الغرب يجب أن ترفع من سقف اهتماماتها، فلا تبقى قضاياها الكبرى في فلسطين والعراق والسودان... فقط بل عليها أن تهتم بقضايا مجتمعاتها الجديدة التي تعيش فيها كقضايا البيئة والضرائب والأمن، وقضايا المستضعفين والمظلومين في العالم من البيض والسود، والملونين في أنحاء العالم، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر حلف الفضول الذي شارك فيه في شبابه في الجاهلية وكان حلفا لنصرة المظلومين والمطالبة بحقوقهم، ولو كانت عند أشراف القوم وسُراتهم وقال عليه الصلاة والسلام: "لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت".

وخلاصة القول إن الحوار بين الشعوب ضرورة شرعية، وسلوك حضاري، تمسك بهما المسلمون قديما وحديثا كخطاب عقدي، ومن دون مصادرة حقوق الآخرين.